من الكلب كـ"شحنة دلالية" إلى الكلب كـ"مختبر تعقيل": قراءة استخلافية لعلاقة الطفل بالكلب في السياق العربي

بقلم : عبد السلام الزراع

مقدمة: في معنى القراءة الاستخلافية لظاهرة ثقافية-نفسية

حين يقدم لنا باحث ما تحليلاً سوسيولوجياً-نفسياً لعلاقة الطفل العربي بالكلب، فإنه يفتح – دون أن يدري – نافذة على أعمق طبقات "النموذج الهرمي القرآني" للنفس. فما يوصف في التحليل بأنه "تنافر معرفي" أو "تعلم اجتماعي" أو "فصام ثقافي" هو، في جوهره، "أعراض" لخلل في "اقتصاديات الطاقة الوجودية" للطفل، و"تشوهات" في "خريطة دينه النفسي" المبكرة، و"تفعيلات مرضية" لـ"الأضلاع الثمانية" في بيئته التربوية.

هذا الفصل لا يكتفي بـ"شرح" الظاهرة بلغة علم النفس الاستخلافي، بل يذهب إلى ما هو أبعد: إنه يقرأ "الكلب" نفسه – لا كمجرد حيوان، ولا كمجرد "شحنة دلالية"، ولا كمجرد "عائق قدسي" – بل "كمسرح وجودي" تجري عليه دراما "التخلق" و"التعقيل" في وعي الطفل. الكلب هنا "مادة" للصراع بين "الفطرة" و"الثقافة"، و"مرآة" تعكس "أزمة الرحمة" في المجتمع العربي المعاصر.

الفصل الأول: "الكلب كشحنة دلالية" – تفكيك "خريطة الدين النفسي" المبكرة للطفل

1.1 من "الارتباط الشرطي" إلى "الدين النفسي الوهمي"

1.2

يشير التحليل السوسيولوجي إلى أن الطفل يتعرف على الكلب أولاً كـ"شحنة دلالية سلبية"، حيث يلاحظ أن كلمة "كلب" هي "الأداة الأكثر فعالية للحط من قدر الآخر". هذا الوصف – من منظورنا – ليس مجرد "تعلم اجتماعي" (كما يقول باندورا)، بل هو "زرع لدين نفسي وهمي" في وعي الطفل.

كيف ذلك؟ "خريطة الدين النفسي" – كما نعرفها في نموذج TLRT – هي مجموع الالتزامات المعنوية التي يشعر بها الفرد. والطفل هنا يُزرع فيه – بشكل غير واع – "دين" تجاه الكلب: "دين الازدراء". إنه يشعر – دون أن يفهم لماذا – أنه "مدين" للمجتمع بأن يكره الكلب، وأنه إن لم يفعل، فهو "مقصر" في حق "النسق". هذا "الدين الوهمي" (لأنه لا أصل له في الفطرة السليمة) سيتحول لاحقاً إلى "طاقة وجودية محتجزة" تعبر عن نفسها في صور من العنف أو الخوف أو الازدراء.

1.3 "فوبيا المادة اللغوية" و"الضلع السابع" في طور التشكل

1.4

حين يربط الطفل بين "الكلب" و"الكَلَب" (المرض)، وحين يتحول نباح الكلب في أذنه إلى "نذير بالجنون أو العدوى"، فإننا نرى – بشكل مصغر – "تفعيل الضلع السابع" (شيطان ← أمارة) في طور التشكل.

الضلع السابع – كما نعرفه – هو مسار "تضخيم الذنب" أو "تضخيم الخوف". هنا، المجتمع (بموروثه وخطابه) يلعب دور "المضخم": إنه يأخذ "خوفاً طبيعياً" (الحذر من حيوان غير مألوف) ويحوله – عبر "الميثولوجيا اللغوية" – إلى "رعب وجودي". الطفل لا يخاف من "عضة" الكلب فقط، بل من "عدواه الكونية" التي تمتد إلى "العقل" (الجنون) و"الروح" (النجاسة). هذا التضخيم يحول "الخوف الوظيفي" (الذي يحمي) إلى "خوف مرضي" (يعزل ويشوه).

الفصل الثاني: "أنطولوجيا الطهارة" – الكلب كـ"عائق قدسي" و"أزمة المركز"

2.1 "المكان واللا-مكان": قراءة في "الكوزمولوجيا" النفسية للطفل

حين يُطرد الكلب من "المجال الحميمي" (البيت) إلى "المجال الخارجي" (الشارع)، فإن الطفل لا يتعلم فقط "قاعدة فقهية"، بل يخوض "تجربة أنطولوجية" عميقة: إنه يتعلم أن "الوجود" نفسه منقسم إلى "مراتب". هناك "مركز" (البيت، الإنسان، الطاهر) و"هامش" (الشارع، الكلب، النجس).

هذا التوزيع المكاني – في علم النفس الاستخلافي – هو "تشكيل مبكر لأزمة المركز". الطفل يتعلم أن "القيمة" مرتبطة بـ"المكان". الكلب "لا يستحق الدفء" لأنه "في الهامش". هذا المنطق – حين يستطبنه الطفل – يصبح نموذجاً لعلاقته مع "الآخرين" المهمشين في المجتمع: الفقراء، اللاجئين، "المختلفين". الكلب هنا "تمرين" على "الإقصاء الوجودي".

2.2 "صدمة الغسل السبعي" و"الأنا الأعلى الطهوري"

إن "التشديد على غسل الإناء سبع مرات إحداهن بالتراب" [32] ليس مجرد "حكم فقهي"، بل هو – في علم النفس الاستخلافي – "طقس تأسيسي" يبني "الأنا الأعلى الطهوري" (Hygienic Superego). الطفل يتعلم – عبر هذا الطقس – أن هناك "قذارة" عادية (يمكن إزالتها بغسلة واحدة)، و"قذارة عنيدة" (تحتاج إلى سبع غسلات وتراب).

هذا التمييز "الكمي" في الطهارة يخلق في لاوعي الطفل "هرمية وجودية" للنجاسة. الكلب ليس "نجساً" فقط، بل هو "نجس بشكل عنيد"، وكأنه يمتلك "قدرة خارقة على إفساد الصلة بالخالق". هذا "التضخيم الطقسي" للنجاسة يغرس في الطفل – بشكل مبكر – "قلقاً وجودياً" من "التلوث"، قد يتحول لاحقاً إلى "وسواس قهري طهوري" (Scrupulosity) في مراحل لاحقة من حياته.

الفصل الثالث: "الصراع الهوياتي" – "الفصام الأخلاقي" بين "كلب الشاشة" و"كلب الشارع"

3.1 "كلب الشاشة" و"كلب الشارع": تشخيص "الفصام الأخلاقي" المبكر

التحليل السوسيولوجي يصف حالة الطفل بين "كلب الشاشة" (البطل، الصديق الوفي) و"كلب الشارع" (النجس، أداة التخويف) بأنها "تنافر معرفي" (Cognitive Dissonance). نحن – في علم النفس الاستخلافي – نذهب إلى ما هو أبعد: إنها "فصام أخلاقي" مبكر.

"الفصام الأخلاقي" – كما عرفناه – هو حالة التمزق بين "منظومتين قيميتين" متعارضتين: منظومة "الوحي" (أو "الفطرة")، ومنظومة "الحداثة" (أو "الثقافة المستوردة"). الطفل هنا يعيش هذا الفصام بشكل حاد: "فطرته" (التي تميل إلى الرحمة والتعاطف مع كائن حي) تصطدم بـ"ثقافته" (التي تأمره بالحذر والازدراء). و"العولمة" (السينما والرسوم) تزيد الطين بلة: إنها تقدم "نموذجاً" للكلب يتعارض كلياً مع "الموروث".

النتيجة: طفل "ممزق" وجودياً. إنه لا يعرف هل يتبع "قلبه" (الذي يميل إلى كلب الشاشة) أم "مجتمعه" (الذي يأمره بكراهية كلب الشارع). هذا التمزق – إن لم يُعالج – سيتحول إلى "طاقة محتجزة" تعبر عن نفسها في صور من "العنف" تجاه الكلاب (رجمها بالحجارة) كتعبير عن "غضب" من هذا التناقض المؤلم.

3.2 "التنافر المعرفي" كـ"طاقة وجودية محتجزة" تبحث عن "جسر سلوكي"

"التنافر المعرفي" – في لغة علم النفس الاستخلافي – ليس مجرد "حالة ذهنية" غير مريحة، بل هو "طاقة وجودية محتجزة". الطفل يشعر بـ"حب" تجاه كلب الشاشة، لكنه "يمنع" نفسه من التعبير عن هذا الحب تجاه كلب الشارع. هذه "الطاقة المحجوزة" لا تختفي، بل تتحول إلى "عدوان" (رجم الكلاب)، أو إلى "خوف" (فوبيا الكلاب)، أو إلى "انسحاب" (تجاهل الكلاب).

والسؤال العلاجي هنا – من منظور TLRT – هو: كيف يمكننا أن نبني "جسراً سلوكياً" للطفل يحول هذه "الطاقة المحتجزة" إلى "فاعلية رحيمة"؟ كيف نساعده على التعبير عن "تعاطفه الفطري" مع الكلب – الذي أثارته السينما – في "واقعه المحلي"؟ هذا ما سنناقشه في "آفاق المصالحة".

الفصل الرابع: "سيكولوجيا التخويف" – الكلب كـ"بعبع تربوي" و"تفعيل الضلع الثالث"

4.1 "الكلب الأسود والشيطان": تشكل "الميثولوجيا المركبة" وانحراف "القاعدة الفطرية"

حين يختلط في ذهن الطفل "الحديث النبوي عن الكلب الأسود البهيم شيطان" [36] مع "حكايات الجدات عن السلعوة والبعبع"، فإننا نرى – بشكل درامي – "انحراف القاعدة الفطرية" عن مسارها.

"القاعدة الفطرية" – كما نعرفها – هي "الإلهام المزدوج" (فجور وتقوى). الطفل يولد وهو مزود بـ"بذرة" الخوف (الوظيفي) من الحيوانات المؤذية، و"بذرة" التعاطف مع الكائنات الحية. المفترض أن "التربية" تساعد على "تنمية" بذرة التعاطف، و"ضبط" بذرة الخوف.

لكن ما يحدث هنا هو العكس تماماً: "التربية" (بخطابها الديني المشوه، وحكاياتها الشعبية المرعبة) "تضخم" بذرة الخوف إلى درجة مرضية، و"تخنق" بذرة التعاطف حتى تموت. "الكلب الأسود" يتحول من "حيوان" إلى "تجسيد للشيطان". وهذا – في علم النفس الاستخلافي – هو "تفعيل مرضي للضلع الثالث" (شيطان ← أمارة) على المستوى الثقافي الجمعي.

4.2 "تنشئة الخوف" و"قتل التعاطف": من "النفس اللوّامة" إلى "النفس الأمارة" الجمعية

حين يستخدم الكلب كأداة للتهديد ("سيأكلك الكلب إن لم تأكل طعامك")، فإن ما يحدث – في العمق – هو "تعطيل منهجي للنفس اللوّامة" لدى الطفل.

"النفس اللوّامة" – كما نعرفها – هي "الحارس" و"مركز المحاسبة". إنها تعمل عبر "الحوار الداخلي" (لماذا أفعل هذا؟ هل هو صواب أم خطأ؟). لكن "التربية بالتخويف" تستبدل هذا "الحوار الداخلي" بـ"الرعب الخارجي". الطفل لا "يأكل طعامه" لأنه "مقتنع" بوجوب ذلك، بل لأنه "خائف" من الكلب. وهكذا، تتعطل "اللوّامة" لديه، ويصبح "الخوف" – لا "الضمير" – هو المحرك لسلوكه.

والأخطر من ذلك أن "غريزة التعاطف مع الكائنات" (Empathy) – التي هي من تجليات "الرحمة" في "القاعدة الفطرية" – تُقتل بشكل منهجي. الطفل يتعلم أن "الرحمة" بالكلب "ضعف"، وأن "القسوة" عليه "قوة". وهذا – على المستوى الجمعي – هو ما يحول المجتمع إلى "نفس أمارة" جماعية، تمارس "العنف" ضد "الآخرين" (الكلاب، ثم البشر المختلفين) بلا وخز من ضمير.

الفصل الخامس: "آفاق المصالحة" – نحو "هندسة وجودية" لتربية رحيمة

5.1 "أنسنة الخطاب الفقهي": "إعادة بناء صورة الكلب" في وعي الطفل

التحليل السوسيولوجي يدعو إلى "تفعيل المذهب المالكي الذي يرى طهارة الكلب". هذه الدعوة – من منظورنا – ليست مجرد "حل فقهي"، بل هي "إعادة بناء لصورة الكلب" في "خريطة الدين النفسي" للطفل.

إن "صورة الكلب" التي يحملها الطفل هي – في الحقيقة – "تمثل داخلي" (Internal Representation) مشوه، تماماً كما تتشوه "صورة الله" عند من تربى على "إله قاسٍ معاقب". المطلوب إذن هو "ترميم" هذه الصورة، عبر:

1. تقديم "نماذج" بديلة: "السلوقي العربي" (كلب الصيد الوفي) يمكن أن يكون "نموذجاً" إيجابياً، يرتبط بـ"الفخر" و"الهوية" و"الفروسية"، بدلاً من "الدونية" و"النجاسة".

2. "الجسر السلوكي" مع الكلاب: تنظيم زيارات للأطفال إلى "ملاجئ الكلاب" (تحت إشراف تربوي)، حيث يمكنهم "اختبار" التعاطف مع الكلاب بشكل مباشر، وتحويل "طاقة الحب" المحتجزة (من مشاهدة أفلام الكلاب) إلى "فعل رحمة" حقيقي.

5.2 "التربية بالرفق": "تفعيل الضلع الرابع" (لوامة ← مطمئنة) في البيئة المدرسية

دمج "حقوق الحيوان" في المناهج الدراسية ليس "ترفاً فكرياً"، بل هو – في علم النفس الاستخلافي – "تفعيل للضلع الرابع" على المستوى التربوي.

الضلع الرابع (لوامة ← مطمئنة) هو مسار "التحول" من "المحاسبة" إلى "السكينة". حين يتعلم الطفل أن "الرفق بالحيوان" ليس مجرد "واجب أخلاقي"، بل هو "طريق إلى الطمأنينة" (لأنه يوقظ "الرحمة" في قلبه، والرحمة "سكينة")، فإنه يختبر – بشكل مبكر – "التحول الوجودي" الذي نقصده بـ"الكينتسوغي النفسي": إنه يحول "خوفه" من الكلب إلى "ذهب" من الرحمة، و"ازدراءه" له إلى "جسر" من التعاطف.

5.3 "استعادة الفطرة": من "الكلب كنجاسة" إلى "الكلب كآية"

المصالحة بين الطفل العربي والكلب – كما يقول التحليل – هي "مصالحة مع قيمة الرحمة". نحن نضيف: إنها "استعادة للقاعدة الفطرية" في أنقى صورها.

فحين يتوقف الطفل عن رؤية الكلب كـ"نجاسة تمشي على أربع"، ويبدأ في رؤيته كـ"روح تسبح للخالق"، فإنه لا "يتعلم" فقط "قيمة" جديدة، بل "يستعيد" شيئاً كان موجوداً فيه منذ البداية: "الفطرة" التي "تسمع" تسبيح الكلب، و"ترى" فيه "آية" من آيات الله، و"تشعر" تجاهه بـ"الرحمة المهداة".

هذه "الاستعادة" هي – في جوهرها – "حرث للمصالحة" مع "الآخر" الذي علمونا أن نكرهه. إنها "توبة" من "ذنب الازدراء" الذي زرع فينا. إنها "عودة" إلى "الجنة الفطرية" حيث "كل المخلوقات" – كما قال النبي – "عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله".

خاتمة استخلافية: الكلب كـ"مختبر تعقيل" و"مرآة الخلافة"

في النهاية، نقول: إن علاقة الطفل العربي بالكلب ليست مجرد "قضية فرعية" في "فقه الطهارة" أو "سوسيولوجيا التنشئة". إنها – من منظور علم النفس الاستخلافي – "مختبر تعقيل" مصغر، و"مرآة" تعكس مدى "استخلاف" الأمة.

فالطفل الذي يتعلم أن "يرحم" الكلب – رغم كل الخطاب المضاد – هو طفل "يتدرب" على أن يكون "خليفة" حقيقياً: كائناً حراً، يمتلك "سيادة" على "الموروث" لا يمتلكه "الموروث" عليه، ويستخدم "عقله" و"فطرته" ليقرر – بنفسه – أي "صورة" للكلب يتبناها.

والأمة التي تربي أطفالها على "الرحمة" بـ"المختلف" (الكلب)، هي أمة "تتدرب" على أن تكون "أمة وسطاً": تشهد على الناس بالخير، وتكون "رحمة للعالمين"، لا "نقمة على المخلوقات".

وهكذا، يتحول "الكلب" – في قراءتنا الاستخلافية – من "شحنة دلالية سلبية" و"عائق قدسي" و"بعبع تربوي"، إلى "معلم وجودي" صامت، يعلمنا – دون أن ينطق – أن "الخلافة" تبدأ من "الرحمة"، وأن "الرحمة" تبدأ من "الأقرب" (الحيوان الذي يشاركنا الفضاء)، وأن "الطهارة" الحقيقية ليست "طهارة الجسد" من لعاب الكلب، بل "طهارة القلب" من كراهية ما لا نفهمه، وازدراء ما هو "مختلف" عنا.

{وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [الأنعام: 38]